

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى وآله وصحبه أجمعين.  
قال المصنف - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: **{وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى \* قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى \* قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى \* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى \* قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}** [سورة طه: ١٧-٢١]، هذا برهان من الله تعالى لموسى - عليه السلام -، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله - عز وجل -، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل.

وقوله: **{وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}**، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له، وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نضع بها الآن، **{وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}**، استفهام تقرير، **{قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا}** أي: أعتد عليها في حال المشي، **{وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي}** أي: أهرز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي، قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخط، وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}**، يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: "قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له"، أي: أنه قبل أن يرسله إلى فرعون وأن يخاطبه بما خاطبه به من أمر الرسالة أراد أن يزيل عنه الوحشة فسأله عن أمور ليست هي المقصودة، هذا مقصود قول من قال: إنه على سبيل الإيناس، كمن أردت أن تحدثه أو تحادثه عن أمر وهو في حال من الخوف والارتباك فسألته عن أمور أخرى ليست هي المقصودة من أجل الإيناس، ثم بعد ذلك تتحدث معه عن المقصود، لهذا يوجد في كتاب الحيدة وإن لم يثبت من جهة الإسناد في أول ذلك سؤالات عن بعض الأمور في المكان الذي جلس فيه الخليفة، وسؤاله عن بعض الشقوق في الجدران ونحو ذلك، قبل أن يسأل عن موضوع القرآن، والقول بخلق القرآن، فيما يذكر عن عبد العزيز الكناني لو صحت القصة، يقول: "وقيل إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نضع بها الآن"، بمعنى: قرره بأنها عصا، وأنها ليست أكثر من ذلك، والعصا لا حياة فيها ولا روح، فقرره بذلك من أجل أن يقول: هي عصاي، ثم بعد ذلك يريه منها حالاً أخرى لا يمكن أن تكون هذه العصا بهذه المثابة إلا بطريق المعجزة، هذا مراد من قال بأنه على سبيل التقرير، أليست هذه هي عصا؟، ولهذا قال بعضهم: وهذا لا يختلف عما قبله بأن المراد التنبيه عليها لتقع المعجزة فيها بعد التثبيت فيها والتأمل، أراد أن يلفت نظره إليها، لما سيقع بعد ذلك

من المعجزة بها، وهذا لا شك أنه هو المناسب في تفسير الآية خلاف قول من قال بأن المقصود بذلك الإيناس، لو كان مجرد الإيناس لكن ذلك من غير وقوع المعجزة في العصا، وقوله: **{وَأَهْشُ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي}**، يقول: "أي أهر بها الشجرة لیتساقط ورقها لترعاه غنمي"، ونقل "عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن"، والمحجن هو العصا التي في طرفها انحناء، معطوفة من طرفها، يقول: "ثم يحركها حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط"، الخبط الضرب، فيتساقط الورق، هكذا قال الإمام مالك، مع أن هذا ليس محل اتفاق كثير من أهل العلم، وهو اختيار ابن جرير: فسر بالخبط، يخبط الشجر فيتساقط الورق، وقرأه نافع بالسین "أهس"، وفسر بالمعنى السابق، قال بعضهم: هما لغتان، وبعضهم فسر بزجر الغنم.

وقوله: **{وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى}**، أي: مصالح ومنافع وحاجات آخر غير ذلك، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهت.

ألف البعض رسالة -مجلداً- في منافع العصا، ومثل هذا لا شك أنه من الترف الفكري كما يقال، والاشتغال بأمر قليلة الفائدة، ما هي فوائد العصا؟! والرجل الذي ذكر فوائد العصا ذكر جملة كثيرة منها في كلامه، فهو يتوكأ عليها، ويهش بها غنمه، ويخبط بها الشجر، وتكون بين يديه في الصلاة، ويدفع عن نفسه بها الكلاب والسباع، ويطاعن بها العدو، ويضع عليها رداءه فتكنه من الشمس، ومن المطر، وهذه العصا يحصل بها أمور أخرى كثيرة ذكرها لا حاجة للتطويل في هذا، يقول: **{وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى}** حاجات أخرى، ما يحتاج إليه في العصا، ومن الناس من يحمل العصا عادة، وسواء كانت عصا أو درة أو نحو ذلك، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لربما توكأ على عسيب، ولربما كانت بيده، فتوضع بين يديه العنزة -رمح صغير- في الصلاة، وعمر -رضي الله عنه- كان يحمل الدرة كثيراً، ولا زال في بيئات من المروءات ومن الكمالات في الزبي ونحو ذلك أن يحمل الإنسان العصا، ربما لا زال هذا موجوداً في السودان إلى اليوم، من كمال الزبي أن الإنسان يحمل معه عصاً.

وقوله تعالى: **{قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى}**، أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها، قال: **{فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}**، أي صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة، **{تَسْعَى}**، أي: تمشي وتضطرب.

قال تعالى: **{سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}** أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك. قوله: **{فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}** ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة"، هذا جمع بين الآيات الواردة **{فِإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُّبِينٌ}** [سورة الأعراف: 107]، وبين قوله: **{كَأَنَّهَا جَانٌّ}** [سورة النمل: 10] والجان صغير الحيات، وهو سريع الحركة جداً، والثعبان الحية العظيمة، ويجمع بين وصف هذه الحية بأنها جان أو كأنها جان، وبين كونها ثعبان مبین بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فهي ضخمة جداً فهي ثعبان، وهي سريعة الحركة، فسرعة حركتها وصفها بهذا الوصف **{كَأَنَّهَا جَانٌّ}**.

وقوله: **{تَسَعَى}**، أي: تمشي وتضطرب، وقوله: **{سَتَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}**، يعني: إلى حالتها السابقة، يقال لكل من كان على أمر فتركه: رجع سيرته، وإلى سيرته، ورجع لسيرته، يعني: إذا رجع لما هو عليه، يعني: ترجع عصا.

**{وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيِّضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى \* لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى \* أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى \* قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي \* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي \* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي \* يَقْفَهُوا قَوْلِي \* وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي \* هَارُونَ أَخِي \* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي \* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي \* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا \* وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا \* إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا}** [سورة طه: ٢٢-٣٥]، وهذا برهان ثانٍ لموسى -عليه السلام- وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه كما صرح به في الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: **{وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ}**، وقال في مكان آخر: **{وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}** [سورة القصص: ٣٢]، وقال مجاهد: **{وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ}** كفك تحت عضدك، وذلك أن موسى -عليه السلام- كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألاً كأنها فلقة قمر، وقوله: **{تَخْرُجُ بَيِّضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}** أي: من غير برص ولا أذى، ومن غير شين، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه -عز وجل-، ولهذا قال تعالى: **{لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}**.

يقول: **{وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ}**، وقال في مكان آخر: **{وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ}**، يقول: "قال مجاهد **{وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ}** كفك تحت عضدك"، الجناح فسره بعضهم -كالفراء والزجاج- بالعضد، وفسره بعضهم -كقطرب- بالجانب، والله -عز وجل- يقول: **{وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}** [سورة الإسراء: ٢٤]، يعني: واخفض لهما جناحك الذليل، فسر بالجانب، يعني: واخفض لهما جانبك، يعني: تواضع، وهذه الأقوال -والله أعلم- لا منافاة بينها، فالذين يقولون هو الجانب، أو الذين يقولون هو العضد، فإن العضد يكون بجانب الإنسان، فالعضد يكون بجانب الإنسان، حتى إن من أهل العلم في تفسير قوله: **{وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}** من قالوا: إن الإنسان إذا أراد أن يبيتش فإنه يرفع يديه، وهكذا قالوا بأن العضد أو اليد من الإنسان، وكذلك أيضاً الجانب هو محل الجناح من الطائر، فإذا قال: **{وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ}** أو **{وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ}** يعني: إلى جانبك، فإذا ضم يده إلى جانبه فإن ذلك هو محل العضد كما هو معروف، ففي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ}** فهذا يحصل به كمال الطمأنينة، ويذهب عنه الخوف، وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيِّضَاءَ}** تخرج بيضاء، يعني: أنها تخرج بهذه الصفة، بعضهم يقول: كأنها قطعة قمر، **{مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}**، أي: من غير علة ولا داء أو برص أو نحو ذلك، فهذه آية يراها الناس، وإذا ضم إليه جناحاه حصل له من الطمأنينة وزال عنه وتلاشى الخوف، وهذا يحتاج إليه في دعوة فرعون ومخاطبته، فهذه آية أخرى لموسى -صلى الله عليه وسلم- قد لا يطلع عليها الناس، لكن إخراج اليد بيضاء هذه آية يرونها ويشاهدونها.

وقوله: **{اذهبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}**، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجتَ فاراً منه وهارياً فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى.

كل من تجاوز حده فإنه يوصف بأنه طغى، **{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ}** [سورة الحاقة: ١١]، يعني: تجاوز الحد، حصل ما حصل من الغرق والطوفان.

**{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي \* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}** هذا سؤال من موسى -عليه السلام- لربه -عز وجل- أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً، فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه -عز وجل- إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله -عز وجل- أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: **{رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي \* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}**، أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلا فلا طاقة لي بذلك.

**{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي \* يَفْقَهُوا قَوْلِي}** وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}** [سورة الزخرف: ٥٢]، أي: يفصح بالكلام.

قوله: **{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي \* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}** هذا يحتاج إليه في الدعوة مع مثل هذا المتكبر، العاتي عن الله -تبارك وتعالى-، فإن من يدعي الربوبية وينكر ويكابر يقول: **{مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** [سورة القصص: ٨٨]، مثل هذا لا تطيق النفوس رؤيته ولا سماع كلامه، فيحتاج من أراد أن يدعو أمثال هؤلاء إلى انشراح، بل كل من أراد أن يقبل على أمر من الأمور فهو يحتاج إلى ذلك، ولهذا يقال فيمن أراد أن يتصدر للدعوة لاسيما دعوة من يصدر منهم الكلام الفج، والفعال القبيحة التي تظلم معها النفوس عند سماعها، فإن مثل هذا يحتاج إلى شرح صدر وما كل أحد يطيق ذلك، ما كل أحد يصلح لهذا، وإذا قرأت لكتابات هؤلاء اللبراليين مثلاً ورأيت الطعن في الدين واللمز والسخرية من الحجاب والدعوة إلى الفساد والاختلاط، والكتابات التي كلها ربما لا تصدر إلا عن نفس متمردة على الله -عز وجل- الإنسان تضيق نفسه حين يقرأ هذا، ويجد من الألم والحسرة الشيء الكثير، ومن أراد أن يدعو هؤلاء فإنه يحتاج إلى شيء من سعة الصدر، والصبر أكثر من غيره ممن يدعو أناساً لهم شيء من الغفلة، فإن رؤية هؤلاء لا تطاق، وقراءة ما يكتبون أمر لا يطاق بحال من الأحوال، وما كل أحد يصبر على مثل هذا، ولا على مطالعة ما يقولون وقراءته، نسأل الله العافية.

وقوله تعالى: **{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي \* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}**، يقول: **{وَاحْتَلَّ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي \* يَقْفَهُوا قَوْلِي}**، ما يُذكر من أن موسى -عليه الصلاة والسلام- في الصغر لما خافه فرعون، يذكرون في هذا أشياء، يقولون: إنه كان وهو صغير يشد لحية فرعون بقوة، وإن فرعون خاف، فهم بقتله فقالت امرأته: إنه لا يفقه، صغير، واختبروه بوضع تمره وجمرة، وإن الله -تبارك وتعالى- ألهمه أخذ الجمرة من أجل أن يصرفهم عنه، هذا يذكر كثيراً في كتب التفسير، ولكن لا أعلم له مستنداً صحيحاً، وموسى -عليه الصلاة والسلام- كان فيه هذه العقدة في لسانه وقوله: **{وَاحْتَلَّ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي \* يَقْفَهُوا قَوْلِي}** ما ذكر هنا من المعنى صحيح باعتبار أنه ما سأل رفع ذلك أجمع، وإنما الحد الذي يحصل به الإبانة والإفهام للمخاطبين، بدليل أن فرعون قال: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ}**، ففرعون مكابر وكذاب، لكن يدل على هذا أن موسى -صلى الله عليه وسلم- لما طلب أن يرسل الله معه هارون علل ذلك ومن جملة ما علل به قال: **{هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا}** [سورة القصص: ٣٤]، فهذا يدل على أنه بقي شيء من ذلك، والله أعلم.

وقوله: **{وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي}** وهذا أيضاً سؤال من موسى -عليه السلام- في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، قال الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: فنبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى -عليهما السلام-، وروى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري، قال: أنا والله أدري، قالت: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستتني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله، قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى -عليه السلام-: **{وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيْهًا}** [سورة الأحزاب: ٦٩].

وقوله: **{اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي}** قال مجاهد: ظهري، **{وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي}**، أي: في مشاورتي، **{كَيْ نَسْبَحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا}** قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وقوله: **{إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا}**، أي: في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

قوله: **{اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي}** الأزر هو القوة، وقرأه ابن نافع **{اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي \* وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي}**، والفرق بين القراءتين واضح، قراءة الجمهور: أن هذا من جملة السؤال، **{وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي \* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي \* وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي}**، وعلى القراءة الثانية أنه سأل أن يبعث معه هارون -عليه السلام-، وعلل ذلك الطلب بقوله: **{اشدّد وأشركه}**.

**{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى \* وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى \* إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى \* أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي \* إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَرَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا}** [سورة طه: ٣٦-٤٠]، هذه إجابة من الله لرسوله موسى -عليه السلام- فيما سأل من ربه -عز وجل-، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت

ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والههم ما ذكره الله عنها في قوله: **{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا}** [سورة القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون **{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا}** [سورة القصص: ٨]، أي: قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله -وله السلطان العظيم والقدرة التامة- أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى: **{يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}**، أي: عند عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كهيل **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}**، قال: حببتك إلى عبادي، **{وَلَتَصْنَعِ عَلَيَّ عَيْنِي}** قال أبو عمران الجوني: تربي بعين الله.

وحينما طلب من ربه قال: **{وَاحْتَلُّ عَقْدَةً مِّن لِّسَانِي \* يَفْقَهُوا قَوْلِي}**، وقال: **{رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي \* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}**، وقال: **{وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي}** كل هذه الأشياء، فقال الله: **{قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ}**، فهذا كله إنعام من الله -عز وجل- على موسى -عليه الصلاة والسلام-، ثم ذكره بنعمة أخرى، **{وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ}** وذلك في حال صغره مما جرى له، قال: **{إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ}** والتعبير بالاسم الموصول يفيد التعظيم، **{مَا يُوحَىٰ}** كما قال الله -عز وجل-: **{فَعَشِيْبُهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيْبُهُم}** [سورة طه: ٧٨]، يعني: شيء عظيم هائل، وهكذا في قوله: **{فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ}** [سورة النجم: ١٠]، كل ذلك يفيد تعظيم هذا الأمر، قال: **{أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ}**، التابوت: الصندوق، واليَم: يقال للبحر، وكذلك النهر الكبير يقال له اليم، **{فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ}** فليلقه: هذا أمر، واللام لام الأمر، **{فَلْيُلْقِهِ}** يحتمل أن يكون هذا من قبيل الأمر على ظاهره، فصيغته صيغة الأمر، والمراد أيضاً الأمر، ويكون هذا الأمر من قبيل الأمر الكوني، أن الله -عز وجل- أمر هذا الماء بأن يتصرف بهذا التابوت بما أراد الله -تبارك وتعالى- فيصل إلى فرعون، ويحتمل أن يكون هذا الأمر **{فَلْيُلْقِهِ}** الصيغة فيه صيغة أمر ولكن المعنى ليس كذلك، يعني: لا يراد به الأمر، وإنما معناه الخبر، وجيء به بصيغة الأمر مبالغةً، وذلك أن الأمر كما يقول بعضهم: هو أقطع الأفعال، **{فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ}** هذا خبرٌ محقق، وجاء به بصيغة الأمر، والساحل قيل له ذلك: لأن الماء سحله، وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وذكره الكثير من المفسرين من أن أم موسى كانت تربطه بحبل فإذا خافت عليه عيون فرعون تتركه في الماء، فإذا أمنت سحبت هذا التابوت وأرضعته، هذا لا دليل عليه، وإنما هو مما تلقى عن بني إسرائيل، وظاهر القرآن يدل على خلافه، فانه -تبارك وتعالى- أخبرنا أنه أوحى إلى أم موسى أن أرضعته فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، وقال لها: **{وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}** [سورة القصص: ٧] هذا يدل على أنها تلقته في اليم، وقال الله -عز وجل- أيضاً: **{يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ}**، فالقائه باليم ليس بهذه الطريق -أنه يربط بحبل تخوفاً عليه-، هذا بأمر الله -عز وجل- وطمانتها وخبرها -كما سيأتي في تفسير الآية في موضعه إن شاء الله- أنه أمرها بأمرين، كما تضمنت الآية خبرين وبشارتين، تضمنت أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، **{أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ}**

**فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ}**، هذان أمران، **{وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي}** هذان نهيان، **{إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}** هذان خبران وبشارتان، فالذي يظهر أنها أمرت أن تلقيه في اليم، فيحمله اليم إلى فرعون، وليس ما ذكر من أنها تربطه ثم بعد ذلك انفلت منها، فحزنت لذلك، وفي قوله: **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}**، يقول: "حببتك إلى عبادي"، هذا هو المشهور، وبعضهم يقول: كان في وجهه صباحة وملاحة، وبعضهم يقول: في عينيه ملاحة، وكل هذا لا حاجة إليه، فانه -عز وجل- يقول: **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}**، والقول الآخر: **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}** أي: أن الله أحبه، محبة صادرة من الله -تبارك وتعالى-، يعني: ألقى مني عليك محبة، أحببتك، وابن جرير -رحمه الله- يقول: ألقى الله محبته على موسى، والقولان بينهما ملازمة؛ وذلك أن الله -عز وجل- إذا أحب عبداً أمر جبريل أن يحبه، فيحبه جبريل فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض<sup>(١)</sup>، فانه إذا أحب عبداً حبه إلى قلوب الخلق، وإذا أبغض عبداً بغضه إلى قلوب الخلق، فالقولان متلازمان ولا حاجة إلى الترجيح بينهما، يعني: قول من قال كابن جرير **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}** أي: أن الله أحبه لا يخالف قول من قال بأنه وضع له المحبة في قلوب الخلق؛ لأن ذلك ينتج وينشأ عن محبة الله -عز وجل- في العبد.

وقوله: **{إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا}**، وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المرضع، فأباها، قال الله تعالى: **{وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ}** [سورة القصص: ١٢]، فجاءت أخته، وقالت: **{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}**، تعني: هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة؟، فذهبت به -وهم معها- إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة، ورفعة، وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل، وقال تعالى هاهنا: **{فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ}**، أي: عليك، **{وَوَقَّلتَ نَفْسًا}**.

في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ}** بين الله -عز وجل- في موضع آخر أن ذلك كان بأمر أمه، حيث قالت لأخته: **{قُصِيهِ}** [سورة القصص: ١١]، يعني: أنها تقص أثره -تبحث عنه-، ولما رأته وأبصرته لم تُعر ذلك اهتماماً، وإنما كأنها رأته رؤية عارضة، عن جُنب: يعني: أنها لم تلتفت إليه، ولم تقبل عليه إقبال من يعرفه، وإنما كأنه شيء عارض لا يعنيه، فقالت لهم: **{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}**، ويذكر المفسرون: أنهم سألوها -والله تعالى أعلم- عن ذلك، يعني: كيف عرفت نصحهم؟ فشكروا في هذا، وأنها قالت: إنهم ينصحون له من أجل إسعاد الملك، يعني: رغبة في إسعاده، ورجاء -أيضاً- عائدته وعطائه، والله تعالى أعلم بهذا كله، وبعضهم يقول: إنهم سألوها: من أين أتى اللبن لهذه المرأة؟ فقالت: من أخي هارون، وهارون -عليه الصلاة والسلام- أكبر من موسى، فيقولون: إنه

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

كان يرضع أيضاً، لم يكن يعني في نفس العمر لكن فيها لبن، ويمكن أن يقال: إنه يرضع؛ لأنه في سن الرضاعة.

وقال تعالى هاهنا: **{فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ}**، أي: عليك.

قال بعض أهل العلم في قوله: **{تَقَرَّ عَيْنُهَا}**: هذا من البرودة، القر والحر، فيعبر به عن الفرح والسرور، ويقولون: دموع الفرح باردة، ودموع الحزن حارة ساخنة، وإذا دعوا على إنسان قالوا: أسخن الله عينه، بمعنى: أنه تحصل له من الفجائع ما يحصل له به الحزن والألم، ولهذا تقول العرب في تشبيهها وأمثالها: أسخن من عين المقلاة، يعني: المرأة التي لا يعيش لها ولد، فعينها ساخنة، يعني: من شدة التوجع والحزن على موت أولادها.

**{وَقَتَلْتَ نَفْسًا}** يعني القبطي **{فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}** وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: **{لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**.

أي نعم، قد يكون من أجل هذا، من أجل أنه خاف على نفسه من قتلهم، وكذلك يدل عليه التنجية **{فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}**، فهذا أحسن من تفسير من فسره بالقتل، بعضهم قال **{فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}**: الغم هو القتل، وبعضهم يقول: إن الغم الذي حصل له بسبب أنه قتل هذا القبطي، ويمكن أن يكون هذا وهذا، يعني: هو حزن، يقال: إن هذا وقع على سبيل الخطأ، يعني: أراد أن يضربه -لكن دون القتل-، فكانت هذه الضربة قاتلة، ولم يقصد قتله فحزن لذلك، وكذلك لما جاءه الرجل الذي يقول: **{إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ}** [سورة القصص: ٢٠] أصابه بسبب هذا الغم، وكل ما يغم القلب يقال له: غم، فإذا كان على أمر فائت قيل له: الحزن، فالحزن هو اعتماد القلب من أمر فائت، وأما إذا كان في أمر المستقبل فهذا الذي يسمى بالخوف، وهذا الفرق بين الحزن والخوف، وإن كان قد يستعمل أحدهما في محل الآخر قليلاً، كما قال الله -عز وجل- عن أهل الجنة: **{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ}** [سورة فاطر: ٣٤] فسر بالخوف والإشفاق من الدار الآخرة؛ لأنهم يقولون: **{إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ}** [سورة الطور: ٢٦] والإشفاق هو خوف خاص، يعني: الخوف مع علم بالمخوف منه يقال له خشية، فإذا كان هذا الخوف رقيقاً قيل له: إشفاق، ويأتي بمعنى آخر أيضاً.

#### فائدة:

قوله: **{وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}**، بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- هياؤه ودبره هذا التدبير، ورعاه هذه الرعاية، وأنشأه هذه النشأة؛ ليقوم بأعباء الرسالة، والدعاء إلى الله -تبارك وتعالى-، يقال: فلان صنع على عين الله، هذه تزكية، ولا نشهد لأحد بمثل هذه الشهادة، لكن من شهد الله -تبارك وتعالى- له نشهد له، فنقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً الله صنعه على عينه، ويمكن أن نقول: الصحابة -رضي الله عنهم- الله صنعه على عينه، اختارهم لصحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، أما آحاد الناس فحينما يقال: إن الله صنعه على عينه معنى ذلك أن هذه تزكية كبيرة جداً لهذا الإنسان، ربما تكون أبلغ من الشهادة له بالجنة؛ لأن الشهادة له بالجنة قد لا تقتضي أن يكون نشأ تلك النشأة ولا عمل أعمالاً معتبرة، إنما ختم له بخاتمة السعادة، أسلم فمات



مثل اليهودي الذي قال: أشهد أن لا إله إلا الله عند موته، فحينما يقال: فلان صنعه الله على عينه فهذا يعني أنه نشأ نشأة على عين الله - عز وجل-، وهذا صعب أن يقال لأحد الناس، والله أعلم.